نظامنا الاجتماعي

(١٢) الحرية والأخلاق

لسنا في حوجاء إلى عرض الاخلاق من فضائل ورذائل على القرّاء لعلمهم اياها ولكن الذي نحتاج إلى عرضه عليهم انما هو ارتباط الحرية بالاخلاق وارتباط الاخلاق بالحرية وأثر ذلك كله في المجتمع البشري

وغير خاف أننا عرّفنا الحرية في مقالتنا السابقة كما ورد في اعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م فقلنا « هي القدرة على عمل كل شيء لا يضر بالفرد ولا بالجماعة — فلكل إنسان الحق أن يقول ويعمل ما يريد ما لم ينقص ذلك شيئاً من حرية الآخرين »

فاذا أتى القول أو العمل بضرر يعود على الفرد والجماعة كان خروجاً على الحرية وكان الكفّ عنهُ من أوجب الواجبات فالكذب والغيبة والنميمة والغبن والغش والظلم والغضب والبخل والفسق والربا والميسر والسرقة وشرب الرّاح الخ كل اولئك مضر بالفرد والجماعة وهذه اضرار الرذائل قد تكاثرتنا وتكاد تردينا إن لم تكن قد أردتنا

وقد وهم السذجة من الناس في اجتراحهم السيئات أنها ليست خروجاً على الحرية وإنما هي ثمرة من ثمراتها وما دروا أن الرذائل معاول هدم الحرية وضدُّها

وإن الرذائل الفاشية في الأمم الغربية تهدم من حرّيتها شيئاً فشيئاً . ولكن الفضائل التي تحلّت بها تؤخر من أجلها والغلبة للاقوى فإذا سادت الفضائل الرذائل بقيت الحرية وإن كانت منقوصة من اطرافها وإذا سادت الرذائل الفضائل ذهبت الحرية وكانت تلك الفضائل القليلة كأن لم تكن شيئاً مذكورا . وقد فطن النابهون من الغربيين للأخطار التي تحدق بأممهم من تفشي الرذائل فنصحوا لها وانذروها شر إنذار إن لم تجتث جذورها وأذكر منهم جوستاف لوبون بفرنسا والفقيد تولستوي بروسيا وهرسون بانكلترا وجودت بك بتركيا وماردن بامريكا

وإذا تقوضت دعائم الحرية من الامة فقد ذهبت الحرية والامة معاً لان الحرية روح الامة ولا بقاء للجسم بعد ذهاب روحه

ومن يحطم الكأس الزوّية وحدها فقد ذهب اثنان الزجاجة والخمر

وليست المعارف الجمة بنافعة الأمة إذا لم تتحصّن بالفضائل وتتجاف عن الرذائل ولقد سقطت دولة الروم الشرقية بسقوطها في حمأة الرذائل ولم يبقها علمها ولا حكمتها ولا قانونها

دالت دولة الروم الشرقية على يد العرب فالترك وهما حينئذٍ أقل علماً وحكمة وحضارة منها ولكنهما كانا أحسن منها خلقاً قال الله تعالى (وإذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) وقال (وما كنا مهلكي القرى إلا واهلها ظالمون)

وصدق أمير البيان أحمد شوقي بك إذ قال

ولربّ نظم سرى في الناس كالمرض المتيم
يتلبّس الحلم الذيـ ـذ عليه بالحلم الاليم
ومدارس لا تنهض الاخلاق دارسة الرسوم
يمشي الفساد بنبتها مشي الشرارة في الهشيم

وكذلك كانت حال المسلمين الاندلسيين في أواخر أيامهم لمّا غرقوا في بحر اللذات وطاف عليهم طائف من الشيطان فمزقهم جيش الاسبانيين شرّ ممزق وفرقهم أيدي سبأ وقد كانوا من قبل ذوي قوة تخر دونها الجبال الشامخات وذرى نور يضيء للناس الظلمات ونار تحرق الشبهات

أتى على القوم امرٌ لا مردّ لهُ حتى غدوا وكان القوم ما كانوا

على أن العلم والفضيلة هما الدعامتان اللتان تشيد عليهما صروح الامم والفضيلة وحدها اقوى هاتين الدعامتين والفضائل والعلوم هي النظام الادبي في الأمة متمثلا في طبيعة الفرد والجماعة قال مارتن لوثر (ما سعاده الامم بكثرة اموالها ولا بقوة حصونها ولا بجمال مبانيها وانما سعادتها بابنائها الذين تثقفت عقولهم وبرجالها الذين حسنت تربيتهم واستنارت بصائرهم واستقامت اخلاقهم ففي هؤلاء سعادتها الحقيقية وهؤلاء هم قوتها وعظمتها) — وقال جورج هربرت الشاعر الانجليزي (قليل من الحياة الصالحة خير من كثير من العلم والمعرفة) ولا يفهم من ذلك ان العلم مَهين كلا بل يفهم منه أن العلم يجب اقترانهُ بالفضائل فرب عالم أقل من جاهل صدقا وأمانة وإخلاصاً وإدراكا لروح الواجب وليس الانسان الكامل من يُؤدي

ما عليه طوعاً للامر والنهي وليست تلك الوسيلة وحدها بالدواء الناجع الذي يشفي الامة من داء التقصير ومرض الاهمال بل يجب ان نقوم بالواجب رغبة منا فيه لا رهبة من القائمين على انفاذه فان من يقوم بعمل لا يريده مكرهاً عليه لا يحسن القيام به وإن كان على رأسه كل قوى العالم وهذه هي الحال في القضية المصرية قضية الحرية ولا تكون إلا اذا عنينا بتربية ضمائرنا التي تسوقنا الى فعل الخير وتنأى بنا عن فعل الشر فاذ ذاك نشعر بقوة خفية تستحوذ على قلوبنا وارادتنا وتدفعنا الى الخيرات كما تدفع الريح السفينة ان تمكنت من شراعها وسرعان ما نعرف معنى العدل وهو ما تصبو اليه النفوس الحرة فتجني ثمراته وحينئذ تتغلب بضمائرنا الحية على ميولنا الخبيثة العادرة عن نفوسنا الامارة بالسوء ولا يقوم من اعوجاج نفوسنا إلا نفوسنا وهذه القوة التي تتمكن من القلب وتحكم فيه اقوى من ان تقهر . وكل ما في الانسان من ميل الى الخير واحساس رقيق وفضيلة ناشيء عن هذه القوة الغريبة التي تحتل الأفئدة والصدور لا البلاد والقصور

وكذلك كل ما يمتاز به الرجل النابغ من الفكر والعمل الجليل انما هو نتيجة هذه القوة ذات السلاطة على الإرادة لأن الشجرة الموزقة الثمرة انما تستمد جذورها الحياة والقوة من خصب الارض وريها ويأخذ ما ظهر منها كفايته من النور والهواء والحرارة والإنسان الذي يحتفظ بنفسه فلا يرمي بها في بحار المفاسد والشرور بل يتبع سبيل الهدى إنما يستمد القوة والهداية من ينبوع طاهر وبيئة صالحة وضمير حي شريف

وقد تظهر نتائج هذه القوة الكامنة في أشكال جمة منها قوة الارادة والحنو والعطف على ابناء الوطن ومنها الفكر الراجح الذي يجعل صاحبه يعمل لتخفيف شرور المجتمع الإنساني ويفتق عن كل وسيلة ناجعة لشفاء امراض أمته وبني جنسه ومنها الاشفاق على الفقراء الذين تركهم امهاتهم تحت رحمة الإنسانية ومنها الرفق بالحيوان الاعجم ومنها طول الأناة في تكوين الجماعات الخيرية لنصرة الضعيف وإغاثة الملهوف إلى غير ذلك من الاعمال النافعة التي يسوغها العقل وتجيزها الفضيلة ولا ينكرها الغوي المقيت وغرضنا من التربية أن نجعل الانسان من صغره إلى كبره عضواً عاملاً في أمته كافلاً بالحرية عاملا على ايجادها والاحتفاظ بها في دائرة الحقوق والواجبات ، والاخلاق الفاضلة سياجها، وكل تربية لا ترمي ولا توصل إلى هذه

الغاية الشريفة تكون عقبا فاسدة لا تصلح لغير خلق المشكلات والاضطرابات ولغير هدم أركان الطمأنينة والسلام

والنفس فى بداية نشأتها لم تهل من مناهل الشرور كما انها لم تصقل فيسهل تعويدها الفضيلة وتجنيبها الرذيلة فى الصورة التى يريدها المربّي واعنى بهِ الأم والأب والاستاذ فإن كان كل اولئك خبيراً بمهمته العظيمة غرس فيها المبادىء العالية وعلمها التمسك بما لها من الحقوق وأفهمها ما عليها من الواجبات وعرّفها حقيقة الحياة وما لها من المزايا فيشب الإنسان ويشيب على احترام الحقائق وتقديسها واحتقار ما عداها والخلاصة ان التربية الصحيحة هى التى تخرج أناسيّ احراراً تكون منهم أمة حرّة رشيدة

وإذ أن الفضائل اعظم سبل الحرية كذلك هى أعظم جنودها التى تتاصل عنها فى حياتها فإذا ما غلبت جنودُ الرذائل جنود الفضائل فقد سقطت الأمة سقوطاً لا تنهض منهُ أبداً وصدق شوقى فيما قال :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبت اخلاقهم ذهبوا

ولا سلامة للحكومات إلاّ بسلامة امها ولا سلامة للامم إلاّ بسلامة اخلاقها ولن تكون دولة عظيمة من غير فساد الاخلاق وإن لاحت عليهم آثار الحضارة والمدنية والرقى ولا يلبثون أن يسقطوا فتسقط الدولة إذا صادفتهم عقبة او غشيتهم شدة

فيُجعلون أحاديثاً ملحّنة لهو المقيم ولهو المدلج السارى

سأل لويس الرابع عشر وزيره كُلْبير قال كيف لا استطيع وأنا ملك فرنسا وهى الدولة العظيمة كثيرة السكان ان اغزو هولانده وهى الامة الصغيرة فأجابه ليست عظمة الامة يا مولاى باتساع ارجائها وتناثر اطرافها وإنما عظمتها باخلاق ابنائها وما اقصدك عن هذه الامة يا مولاى إلاّ ما عرف بهِ ابناؤها من الكدّ والتدبير والهمة . وإن فى هذا الحديث لعبرة لنا وبلاغاً لامتنا

وخلاصة القول أن الحريّة تتغذى بالفضائل كما يتغذى الاستبداد بالرذائل وليست الحياة الا ميداناً للعمل الذى يصدر عنا دلالة على اخلاقنا فإن كانت خيراً فخير وإن كانت شراً فشرٌّ. فاعتبروا يا أولى الابصار؟

عبد الرحيم محمود
المدرس بمدرسة المعلمين الثانوية